

علاقات فرنسا بشمال افريقية

في النصف الثاني للقرن التاسع عشر

للدكتور محمد مصطفى صفوت

لم توثق فرنسا اهتماما حقيقيا بأمر شمال افريقية (١) الا في اوائل الربع الثاني للقرن التاسع عشر ، الا بعد أن رسخت اقدامها رسوخا تاما في الجزائر . حقيقة لقد كانت لفرنسا علاقات بشمال افريقية وخاصة تونس والجزائر منذ القرن السابع عشر ، ولكنها كانت علاقات ذات صبغة تجارية اقتصادية في الغالب . وكانت فرنسا اول دولة اوروبية قررت ان يكون لها ممثلون سياسيون او قناصل عامون (جنرالات) في بعض المناطق من الشاطئ الافريقي الشمالي . وكان لها بعض من نفوذ في هذه الجهات بحكم المعاهدات التي عقدها مع الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على شرقي البحر المتوسط جميعه وعلى شمال افريقية الى حدود مراكش الشرقية (٢) . وطوال القرون السابع عشر كان للقناصل الفرنسيين حق (هو اسمى في حقيقة الامر) في رعاية او حماية الرعايا الاوربيين الكاثوليك المقيمين في هذه الاقطار .

ولكن فرنسا لم تقرر نهائيا خطة سياسية محدودة بازاء تونس التي تقع في منتصف شمال افريقية تقريبا وبازاء مراكش الا قرب اواخر الربع الثاني للقرن التاسع عشر ، ولقد اتبعت فرنسا هذه الخطة ، او السياسة التقليدية كما اسمتها ، بكل دقة وبقوة لانعرف التراجع او التسليم او الوهن الى ان فرضت حمايتها نهائيا على تونس في اوائل صيف سنة ١٨٨١ وبسطت سيطرتها على مراكش في السنوات الاربع الاولى للقرن العشرين .

لقد كان فتح مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠ خطوة جريئة وقوية معا قام بها ملوك البريون الفرنسيون حين شعروا بازدياد ضعف مرتزهم الداخلي في فرنسا ، وحين احسوا قيام معارضة قوية ضدهم من جانب الجمهوريين

(١) المقصود بشمال افريقية هنا الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس
(٢) لم تخضع مراكش في يوم من الايام للعثمانيين بعكس الجزائر وتونس وطرابلس .

والمليين الاحرار الدستوريين . فأرادوا شغل الراى العام الفرنسى عن مناقشة سياستهم الداخلىة الرجعية وانتقادها . وأرادوا في نفس الوقت تقوية مركز الملكية البربونىة الداخلىة وتثبيتته بانتصار خارجى مدو لا يكلف في نفس الوقت فرنسا كثيرا . فاستغلوا اهانة داي الجزائر لتصلهم في هذه المدينة، وطالبوا بتعويضات وحقوق لم يعترف بها هذا الحاكم . ولا يستطيع الاعتراف بها ، وحينئذ أرسلوا حملة بحرية ضربت مدينة الجزائر واحتلتها . وبذلك انتهى عهد الاستقلال الفعلى لهذه البلاد ، وانتهت سيادة السلطان العثمانى الاسمية ، وزال نفوذ الاتراك نهائيا ذلك النفوذ الذى استمر اكثر من فرنين من الزمان .

وضع البربون اذن ، وهم لايشمرون ، اساس الامبراطورية الفرنسية الحديثة في افريقية . ولكن اساس دولتهم في فرنسا لم يستمر فلقد انهيار في نفس السنة التى فتحت فيها مدينة الجزائر . ولكن ملكية آل اربيان احتفظت بمدينة الجزائر فلم تجل القوات الفرنسية عنها بل وقاومت ناجحة كل راى أو فكرة ترمى الى الانسحاب من شمال افريقية . ولم تقتصر على ذلك ، بل وأرسلت القوات الفرنسية من مدينة الجزائر قاهرة وفاتحة الى المناطق المجاورة الى أن استطاعت في آخر الامر اتمام فتح بلاد الجزائر جميعها في نهاية النصف الاول للقرن التاسع عشر .

في الجزائر قامت فرنسا باكبر تجربة استعمارية عرفتها في تاريخها الحديث . واعتبرت بلاد الجزائر ، من النصف الثانى للقرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر ، امتدادا لاراضى فرنسا وجزء لا يتجزأ منها ، بل لقد اعتبرت بعض الحكومات الفرنسية مؤثلا أخيرا تلجا اليه اذا اصابت فرنسا في القارة الاوربية كارثة اودت بقوتها البرية .

لقد أصبحت فرنسا بعد اتمام فتح بلاد الجزائر ، وقد تم لها ذلك بعد بذل جهد عنيف وتضحيات كبيرة في الاموال والانفس ، أصبحت فرنسا مقيمة في بلاد اسلامية تتاخم حدودها دوتين اسلاميتين ، وكان من الطبيعى ان يكون اثرها كبيرا في ذلك العالم الاسلامى القريب منها والمجاور لها ، وان تتأثر به ايضا . فلم تعد حينئذ مصالح الدولة الفرنسية اوروبية ومسيحية فحسب، بل افريقية واسلامية كذلك . واصبح لزاما على آل حكومة تتولى زمام الحكم في فرنسا ان تعنى عناية خاصة بأمور ذلك العالم الجديد ، وما يجد فيه من حوادث ، وما يتعاقب عليه من انقلابات وتغيرات . لان هذه الحوادث والانقلابات لا بد وان تحدث صدى كبيرا في الممتلكات الفرنسية في شمال افريقية .

حقيقة كان لفتح الفرنسيين دوى هائل في شمال افريقية . فلقد تزلزلت كل النظم الموجودة هناك وتضعفت ؛ وله تمد دولتا تونس ومراكش المجاورتان

للجزائر في مأمن من الخطر الفرنسي الذي كان يزداد نمواً وعنفاً كل يوم .
وانتهى عهد الاطمئنان بالنسبة لهاتين الدولتين اللتين كانتا قد اخذتا في طريق
الضعف السياسي والاقتصادي ، وسيأتي يوم يشاء القدر فيه وتحكم فيه
الظروف الجغرافية وتطور الاحداث التاريخية ان تقع فيه الدولتان تحت
سيطرة فرنسا والحكم الفرنسي .

وبالنسبة لدولة تونس كان الخطر اعظم وأقرب لصغر مساحتها وجنوح أهلها
للسلم . وهي بعد ذلك لها من الثروة الفنى والموارد الطبيعية والمركز الجغرافي
في البحر الابيض المتوسط ما يجعلها أكثر جاذبية لجيرانها الجدد الفرنسيين .
كذلك لا توجد حدود طبيعة ولاسياسة ولاعنصرية حقيقية ولا دينية تفصل بينها
وبين البلاد الجزائرية . واذا كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة قد قررت
الاحتفاظ بالجزائر فكان لزاماً عليها كما رأت ان تراقب بدقة ما يحدث في القطرين
التونسي والمراشقي . فاحتفاظ فرنسا بالجزائر دعاها الى متابعة الاهتمام
بأمور تونس . لانه في شمال افريقية - كما اعتقد الفرنسيون في القرن التاسع
عشر وكما لا يزالون يعتقدون تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها المتدفق
وحيويتها الفائقة ، تستطيع تدريب قواتها العسكرية واعداد اعظم جنودها .
لقد أصبحت الجزائر مركزاً للتوسع الفرنسي في شمال افريقية واعظم
مدرسة لتدريب الجند - كانت مدرسة عملية للحرب والصبر تخرج فيها
معظم قادة فرنسا من رجال الحرب ، وتير Thiers - وقد تولى
الإشراف على الحكومة في فرنسا مراراً ابان القرن التاسع عشر ، يشير دائماً
الى الجزائر كمدرسة عملية يتدرب فيها الجيش الفرنسي على تحمل المكاره
والمشاق ومقابلة الخطر المتجدد المستحکم ، واليقظة وحضور الدهن ، فأحسن
الجنود الفرنسيون هم الذين مارسوا امور الحرب امام الحصان الابيض وامام
الجزائريين (١)

لقد ارتسمت فرنسا لنفسها سياسة استعمارية في الجزائر نمت وتطورت
خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتنطوي آخر مراحل هذه السياسة
على ضم هذه البلاد نهائياً الى فرنسا بحيث تصبح الجزائر في آخر الامر أرضاً
فرنسية سكانها مواطنون فرنسيون من حيث الحقوق والواجبات السياسية . لقد
رمت السياسة الاستعمارية لفرنسا في اول الامر الى استغلال موارد الجزائر
الطبيعية والاقتصادية ، وعملت على اقامة حكم فرنسي قوى للوصول الى ذلك
الفرض ، واستخدمت شتى الوسائل لتثبيت دعائم ذلك الحكم من ابقاء جيش
قوى على قدم الاستعداد في كل لحظة وانشاء فرق اجنبية تتكون من المفامرين

(١) De Remusat : Thiers من ٦٨ و ٦٩

من كل دولة وملة للمسلعة في قمع الثورات ، وتشجيع الفرنسيين على الهجرة
وتعزيد كل من كانت له ميول فرنسية في هذه البلاد ، واستغلال رؤوس
الاموال الفرنسية في تنمية موارد الثروة .

ومرت السياسة الفرنسية في الجزائر في مراحل ابان القرن التاسع عشر .
فكانت في اول الامر سياسة قوة وعنفا وفتح واستيلاء وارغام الاهلين
على قبول الخضوع للحكم الفرنسى . ولكنها بمرور الزمن اخذت تتحول
بالتدريج الى رغبة في استصلاح الجزائريين عن طريق منحهم بعض الحقوق
ليقبلوا الحكم الفرنسى راضين . ولكن يظهر ان كلتى السياستين لم تفوزا بنجاح
كبير وخاصة بعد نمو حركة الجامعة الاسلامية في الربع الاخير للقرن التاسع
عشر ونمو الشعور القومى . فالعوامل القومية واختلاف الدين والعنصر
(الجنس) لها اثر كبير في بقاء مشكلة الجزائر الى الوقت الحاضر .



ولو ترك الامر للسلطات الحربية الفرنسية في الجزائر تفعل ما تريد
لاستولت بقوة السلاح على تونس بالذات اولا معارضة حكومة لوى فيليب
ونابليون الثالث وفي اوائل الربع الثانى للقرن التاسع عشر وضع الوزير الانجليزى
بامستون Palmerston سياسة انجلترا التقليدية ازاء تونس (١) وكان لذلك
اثره بلا ريب في السياسة الفرنسية ، فبعد ان كانت سياسة العمل على التوسع
السريع الجارف في شمال افريقية ، اصبحت سياسة المحافظة على الحالة
الراهنة في كل من تونس ومراكش . وبذا عملت كل من انجلترا وفرنسا على
الابقاء على الموقف السياسى الموجود في ذلك الوقت ، وان تباينت دوافعها
واختلفا في ذلك فهما لذلك الموقف . فلم تكن معالم ذلك الموقف محدودة
ولا متفقا عليها . وكانت السياسة الفرنسية ترحب بذلك الفموض ، وتجد
فيه فائدة كبيرة لها تتفق واغراضها الامبراطورية الاستعمارية .

كانت السياسة الفرنسية ابان القرن التاسع عشر الى سنة ١٨٨١ بالنسبة
لتونس قائمة على اساسين : اولا كرهها لان تكون لها حدود سياسية مشتركة
مع ممتلكات الباب العالى ، وثانيا المحافظة على ممتلكات فرنسا الجزائرية فلقد
كانت اهمية الجزائر عند الفرنسيين مشابهة لاهمية الهند عند الانجليز .

ولو ان الباب العالى ترك تونس وامورها ولم يتدخل في شئونها ! الا ان
مركز الدولة العثمانية القوى في طرابلس حتم عليها التدخل في امور تونس

(١) وكانت هذه السياسة تقتضى بالاعتراف بتونس كجزء من ممتلكات
الدولة العثمانية مع الاحتفاظ باستقلالها في تعريف امورها الداخلية .

ومحاولة استرجاع سلطاتها فيها . ففي تونس يستطيع الباب العالي الاتصال بالقبائل الجزائرية ، فيثير مشاكل خطيرة لفرنسا لاعداد لها . ولذا فبالرغم من أن فرنسا قررت مؤقتا الاتوسع على حساب اراضي تونس الا انها صممت بعزم وقوة على منع الباب العالي من استرجاع نفوذه في تونس ، او التدخل في شؤونها تدخلا ينقص من استقلالها الذي تتمتع به ، فلا عجب اذن اذا بينت الحكومات الفرنسية المتعاقبة في المدة ما بين سنتي ١٨٢٥ : ١٨٨١ للحكومات العثمانية . وذلك بوضوح لامزيد عليه ، انها لن تعترف بحقوق الباب العالي في تونس ، وليست له حقوق ، ولن تقبل أى تدخل من جانبه . وأنها ستلتجئ الى القوة اذا قام بآية محاولة لبيسط سيطانه على هذه البلاد (١)

والى جانب ذلك احاطت فرنسا بايات تونس علما بأنه لا سبيل الى التنازل عن شيء من حقوقهم او مظاهر سلطتهم للباب العالي ، وان مصالحهم تختلف تماما مع مصالح السلطان ، وانه لاصلة تربطهم بتركيا سوى صلة الدين ، وان هذه الصلة لاتعنى شيئا من الناحية السياسية . وضمنت للبايات الاعتراف باستقلالهم (٢) . وغالت فرنسا في محاولاتها العمل على ضم حكام تونس ووزرائها الى الجانب الفرنسي ، فأهدتهه النياشين الرفيعة الكثيرة ، وقدمت لهم الهدايا الثمينة . واستقبلت الباي أحمد باشا حين زار باريس استقبال الملوك . ولم تأبه مطلقا لاحتجاجات السفير العثماني في باريس ، وقبلت النياشين التي منحها الباي لضباطها ومبعوثيها السياسيين او القنصلين . واما من حيث محاولات انجلترا لتوثيق الصلات بين البايات والباب العالي ، فلقد وضعت فرنسا في سبيلها كل العراقيل الممكنة . وافهمت البايات جيدا ان ما تهدف اليه حكومة انجلترا هو ان تجعل منهم ولاية اذلة خاضعين للسلطان (٣)

اخذت فرنسا اذن على عاتقها حماية استقلال تونس ضد مظالم السلطان العثماني ، وجعلت هذه السياسة سياسة تقليدية لها . ووضع اسس هذه السياسة الوزيران الفرنسيان تيسير وجيزو . ولم تال الحكومات الفرنسية جهدا في توضيح وجهة نظرها هذه للباب العالي في الفترات المختلفة ، ولم تتورع بانفعل عن ارسال اساطيلها الى المياه التونسية حين وجدت ان الباب العالي يحاول أن يتدخل في أمور هذه البلاد . بل وهددت مصر الدولة العثمانية نفسها ان لم تحترم وجهة النظر الفرنسية ، ففي سنة ١٨٦٤ مثلا أعلن دى

(١) انظر مذكرة القنصل الانجليزي ود Wood لوزارة الخارجية الانجليزية F. O. 102/58 Aug. 26, 1859

(٢) نفس المرجع

موسثير De Moustier السفير الفرنسي في القسطنطينية للحكومة العثمانية
ان فرنسا لن ترحب بجوار العثمانيين في تونس ، وطلب الا يعطى الباب العالي
لفرنسا فرصة العمل على انهيار الدولة العثمانية (١) .

وكذلك وضحت فرنسا لانجلترا سياستها هذه بأنها لن تصير ابدا على
تدخل الباب العالي في امور تونس ، وانه للمحافظة على ممتلكاتها في الجزائر
لا مناص لها من المحافظة على الموقف السياسي الراهن في تونس . فيقول
درون دى لوى Drouyn de Lhuys وزير الخارجية الفرنسية لكولى Cowley
سفير انجلترا في باريس في اوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر ان سياسة
فرنسا بأزاء هذه المسألة واحدة لن تحيد عنها ، ففرنسا لها مصالح مهمة وحيوية
في الجزائر ، وان من مصلحة فرنسا ومن مصلحة الباب العالي نفسه ان تتعامل
فرنسا مع تونس وحدها لا مع السلطان ، فجزيرة فرنسا ليست مريحة للسلطان
وستخلق له بلا ريب مشاكل لاحصر لها هي في غنى عنها (٢) ويقصد الوزير
الفرنسي بذلك اثار المسألة الشرقية وتدمير الدولة العثمانية .

كذلك عملت فرنسا على ان يكون لها وحدها التفوق السياسي والاقتصادي
في تونس ، وعلى الا تكون الفرص متساوية امام جميع الدول الاوربية التي لها
مصالح في هذه البلاد ، فيجب ان يكون لمصالح الفرنسيين التقدم على مصالح
الدول الاخرى . وهنا قد يوضع هذا السؤال . الى اي حد اثرت المصالح
الاقتصادية في سياسة فرنسا نحو هذه البلاد ؟ في الواقع ان اهم الدوافع كانت
دوافع سياسية واستراتيجية ، وهذه الدوافع هي في الغالب التي دعت الدول
الاخرى مثل انجلترا بل واطاليا الى ارسال رؤوس اموالها الى هذه البلاد
واستخدامها في مشاريع الغنم الاقتصادي العاجل منها ضعيف لا يشفى غليل
رجال المال ولا يقنع الاقتصاديين .

ولقد عمل على تفوق النفوذ الفرنسي في نفس القوات الضخمة التي حشدتها
فرنسا على الحدود بين البلدين ، ثم المظاهرات البحرية التي كانت تقوم بها
من حين لآخر في المياه التونسية ، ووسائل التهديد والوعيد التي كانت
تستخدمها ، ثم النياشين والهدايا التي كانت تفدقها في المناسبات المختلفة على
الباي وعلى وزرائه . كان معظم الموظفين الاجانب في كثير من الاوقات فرنسيين ،
وقام بعدد كبير من المشاريع الفرنسيون . فلا عجب اذن اذا وجد القنصل
الانجليزي في سنة ١٨٥٦ زميله القنصل الفرنسي يتمتع بنفوذ هائل لا نظير له .

(١) نفس المرجع

(٢) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية Cowleyts Russell رقم

١٨٠١٠٥٤ ديسمبر ١٨٦٤

ولذا كرس نشاطه السياسي، وكان كبيرا لمحاربة ذلك التفرد وهدمه اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

ولذا قام النزاع حامى الوطيس بين القنصلين الانجليزى والفرنسى على النفوذ السياسى والتفوق الاقتصادى . فكان النزاع على اشده بين سير توماس ريد Reade ودى لسبس ، وكذلك كان التنافس شديدا بين خلفائهما على نيل الامتيازات واحتكار المشاريع ، واتهم كل من القنصلين الآخر بالعمل على عرقلته والاساءة الى سمعته ومحاولة القضاء على مصالح مواطنيه .

وبالرغم من كفاح القنصل الانجليزى Richard Wood ظل النفوذ الفرنسى متفوقا الى سنة ١٨٧٠ ، ووجد ود ان نصائحه التى كان كريما فى اسدائها للباى ليست بذات كبير غناء امام نفوذ زميله الفرنسى الذى كان يؤيده ستون الف جندى مرابطين على الحدود الجزائرية وبحرية كثيرة التردد على موانئ تونس (٢) .

كان الرأى مختلفا فى الدوائر السياسية الفرنسية بالسبب لاحتلال تونس ففريق من رجال الحكومة لا يؤيد سياسة التمتع والتقهر والاستيلاء على هذه البلاد بالقوة ؛ بل يرى اتباع سياسة التريث والانتظار ، وفريق آخر يرى استعمال الوسائل السلمية لضم تونس الى الجزائر ، وذلك باحتكار المشاريع واقناع الباى بصداقة فرنسا . وكانت آراء الفريق الثانى هى الراجحة ، ويظهر ان آراء الفريقين كانت مجمعة على مد حدود الجزائر الى نهر مجردة ، بحيث تكون بنزرت فى المنطقة الفرنسية ، وذلك اذا ارغمت الظروف فرنسا على اتخاذ موقف حاسم . وكانت السلطات الفرنسية الحربية فى الجزائر تؤيد بحماس هذه الفكرة وتسعى الى تنفيذها فى اقرب وقت مستطاع . وهناك فريق ثالث يرى ان فرنسا لديها من المشاغل الكثيرة والمشاكل المعقدة ما يجب ان يصر فيها عن التفكير فى خلق مشاكل جديدة بضم تونس ، لاسيما وان ذلك الفريق يرى ان فرنسا قد لاقت الوانا من المتاعب فى الجزائر . وان تجربة الاستعمار فى الجزائر نفسها ليست ناجحة بحال من الاحوال ، فلقد استنزفت جانبا كبيرا من اموال فرنسا ودماء ابنائها .

وهناك نابليون الثالث تملا مخيلته افكار غريبة عن شمال افريقية ، فلقد

(٢) انظر المذكرات والتقارير التى دونها القنصل الانجليزى رينشارد الى حكومته فى السنوات التى بين ١٨٥٧ ، ١٨٦٠ ، وتمتاز هذه المذكرات بطولها وبكثرة التفاصيل عن موقف الفرنسيين فى تونس والجزائر ، وهذه المذكرات والتقارير موجودة فى وزارة الخارجية الانجليزية تحت عنوان تونس T.O.102

كان يظن أن من السهل تطبيق فكرة القومية في هذه الأرجاء ، فكان يحلم بإنشاء مملكة عربية في الجزائر صديقة لفرنسا وموالية لها . ولكنه كان في نفس الوقت يفكر في إنشاء اتحاد أوروبي مرماه السلام - وظن أن الدول تستطيع أن تنسى ما بينها من حزازات وخلافات إذا اقتسمت فيما بينها الممتلكات الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط . ولكن مبادئ السياسة التقليدية الفرنسية ومصالح رجال الجنوب في فرنسا كانت تدفعهم دائما إلى المطالبة باتباع سياسة نشيطة في شمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت لأرائهم قيمة كبيرة في توجيه السياسة الفعلية للحكومة الفرنسية .

ولقد انصرفت الأفكار في فرنسا عن تونس مؤقتا حين عاد الخطر الألماني إلى الظهور شرقى نهر الرين ، فما لبثت الحكومة الفرنسية بقادرة على أن تفرط في صداقتها لـ إنجلترا وإيطاليا باتباع سياسة قوية في تونس قد تضطر هاتين الدولتين إلى أن تتخذوا موقف العداء نحو فرنسا .

ثم جاءت الكارثة الحربية والسياسية التي حلت بفرنسا في سنة ١٨٧٠ فغيرت إلى حين الموقف السياسي في تونس ، فازداد أمل الإنجليز والطلليان في إضعاف النفوذ الفرنسي والانفراد بالنفوذ في هذه البلاد . ولكن فرنسا نهضت من كبوتها بسرعة ، وعادت إلى نشاطها في تونس ، فعاد الموقف إلى التفسير وخاصة بعد أن عينت فرنسا Roustan ممثلا سياسيا وتوصلا جنراليا في تونس .

وروستان رجل يمتاز بالدهاء واللباقة وبعد النظر ، ثم بنشاط متدفق وإيمان بمهمة فرنسا السياسية والحضارية في البحر الأبيض المتوسط ، وإليه يرجع الفضل إلى حد كبير في تمهيد الطريق لبطح الحماية الفرنسية على تونس . فشخصيته وصبره وسعة ثقافته وتجاربه وحسن إعداده لوظيفته بعث على احترام الرجال له وتملق النساء به ! ولقد لعبت المرأة دورا هاما في مسألة تونس !

تلقى روستان تعليمه العالي السياسي والنظري المنظم في باريس ، وذلك بعكس ود القنصل الإنجليزي الذي لم يزد تعليمه على مدرسة ثانوية في أكستر . ومن سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٤ مثل روستان دولته في جملة مناصب قنصلية مهمة في الشرق الأدنى ، في أزمير والقاهرة والإسكندرية وبيروت . فتدرب تدريبا عمليا ممتازا ، وعرف الكثير عن أحوال الأمم الإسلامية ودرس الشرقيين دراسة وافية ولذا إذا كان البحر الأبيض المتوسط في نظر الإنجليز أهم حلقة في سلسلة المواصلات الإمبراطورية البريطانية إلى الهند ، فهو يمثل في نظر روستان بحيرة فرنسية ممثلة بالذكريات الفرنسية المجيدة ، ذكريات صليبيها وبحارتها وتجارتها ، فروستان مؤمن بمستقبل بلاده ، ويرى ضرورة تفوق فرنسا في ذلك البحر الذي تطل عليه سواحلها الجنوبية .

لقد وجد روستان في سنة ١٨٧٤ ان نفوذ فرنسا في تونس لا يزال يعاني من هزيمتها الكبرى أمام الالمان في سيدان ، ومن سوء تصرف القناصل قبله . فبوتمليو Botmiliau كان قد بلغ من الكبر عتيا والم به اليأس في سنة ١٨٧٠ فلم يترك له املا في اصلاح مركز فرنسا بعد هزيمتها الساحقة . وجاء بعده دي فلا de Vallat الذي جعل مهمته طرد الوزير التونسي الخزنة دارمن الحكم . وافلح بعض الشيء في اصلاح مركز فرنسا . الا ان بسمارك المستشار الالمانى ساءه ما يتمتع به الفرنسيون من نفوذ فنصح للباى بالا يقيم كبير وزن لمركز فرنسا . ما بقى من نفوذ فرنسا اضاع معظمه دي بلنج de Billing الذي سمح لزوجه الانجليزية بالتدخل في امور السياسة ولم يكن له ولا لزوجه من بعد النظر والحكمة السياسية ما يمكنه من تقوية مركز بلاده . فاشتبك هو وزوجه في دسائس عقيمة هبطت بمركز فرنسا وانتهت باستدعاء حكومته له في آخر الامر وتعيين روستان محله .

وما منع نفوذ فرنسا من الانهيار تماما في سنة ١٨٧١ هو ان شروط الصلح بينها وبين الالمان لم تمس امبراطوريتها الاستعمارية . وبالرغم من الضعف الشديد الذي ألم بفرنسا في هذه السنة فان ساستها صمموها على المحافظة على الامبراطورية بكل ما في وسعهم ، فقضوا قضاء مبرما على الثورة العنيفة التي قامت في الجزائر في سنة ١٨٧١ . فكان ذلك دليلا ناصعا على ان فرنسا لازالت قوية في شمال افريقية . ولكن نمو النفوذ الفرنسى في تونس يرجع بلا ريب الى روستان ، فلقد نجح في تدعيم النفوذ الفرنسى في تونس بمكافحة النفوذ الانجليزى والحصول على امتيازات متنوعة لبلاده ، كان اهمها الخط الحديدي من تونس الى حدود الجزائر لشركة بونا جلما الفرنسية ، واهمية ذلك المشروع كبيرة فهو يمر في اخصب اراضى تونس واغناها ، ثم قيمته لا تقدر في تهيل نقل الجنود من الجزائر الى تونس في الوقت المناسب . ولقد وجد روستان كل تأييد من حكومته ، فكل من دى برجلي Broglie ودكاز Decazes (وزيرى فرنسا الامور الخارجية) اتبع بكل دقة وعزم سنة الوزارات الفرنسية قبله فيما يختص بالسياسة التقليدية ، فتونس في نظر الرجلين «مدخل الجزائر ومفتاح ممتلكات فرنسا في شمال افريقية » (١)

على ان مسألة تونس بعد سنة ١٨٧٠ لم تعد مسألة فرنسية انجليزية ايطالية فحسب ، فلقد اصبحت مسألة دولية قبل كل شيء . وسنجد ان البت في مصير تونس لم يعد في يد انجلترا او فرنسا او ايطاليا وانما كان الى حد كبير بيد المستشار الالمانى بسمارك ، فلما استطاع واحدة من الدول السابقة

(١) عن Langer : European Alliances ص ٢١٨

اتخاذ موقف حاسم دون الحصول على موافقته وتأييده . ولقد وجد بزمرك في صيف سنة ١٨٧٨ أن مصلحة ألمانيا تقتضى التفاهم مع إنجلترا في هذا الشأن، وأن يعطى الفرنسيين الحرية ليفعلوا ماشاءوا في هذه البلاد ، ولتفصيل ذلك نقول :

أن مسألة تونس أصبحت وثيقة الصلة بالعلاقات الألمانية الفرنسية منذ سنة ١٨٧١ ، ولقد تطورت هذه العلاقات خلال السنوات بين ١٨٧١ ، ١٨٧٨ من علاقات تحد وعد الى علاقات ود ومجاملة وصفاء .

من بعد سنة ١٨٧٠ اتخذ بسمارك موقف المعارضة لسياسة التوسع الفرنسية بصفة عامة ، وفي تونس بصفة خاصة . وذلك راجع بلا شك الى استمرار العداء بين الدولتين ، فالاحوال في فرنسا ما كانت عاملة على كسب ثقته واسترضائه ، ومن هنا كانت محاولاته لوضع المقبات امام نمو النفوذ الفرنسى في تونس .

كانت سياسة بسمارك في اول الامر قائمة على قمع فرنسا وارهابها ، فما كانت سيطرة العناصر الكاثوليكية في باريس ، وما كان وجود حزب الانتقال عاملا على ارتياحه او تهئية الجو لان يمد يد الصداقة لفرنسا ، وخاصة وأن حكومات اليمين الى سنة ١٨٧٥ كانت تعمل جاهدة على التقرب من روسيا . وكانت سياسة بسمارك وجهوده مدى حيائه تعمل دائما على الا توجد ألمانيا في موقف يضطرها الى الحرب في جبهتين في وقت واحد . ولذا كانت سياسة المستشار الألماني الى سنة ٨١٧٥ العمل على عزله فرنسا من الناحية السياسية ومنعها من عقد تحالفات مع روسيا أو إيطاليا والوقوف امام مطامعها الاستعمارية .

ولكن ازمة سنة ١٨٧٥ التي استحكمت بين فرنسا وألمانيا بينت له ان سياسة القمع والتهديد والوعيد لم تكن سياسة حكيمة . ولذا رأى اتباع سياسة استصلاح الدول الكبرى جميعا وخاصة فرنسا على حساب الدولة العثمانية التي لم يكن يهتم بمصيرها ولا بضياح حقوقها في ذلك الوقت . ولذا ففى نظره تستطيع روسيا ان ترضى مطامعها في البلقان ، وتستطيع إنجلترا أخذ مصر، بينما تستطيع فرنسا الذهاب الى تونس اذا ارادت . على شرط أن تتبع سياسة مرضية لألمانيا .

ولذا في رسالته المؤرخة ١٠ يناير ١٨٧٥ الى هوهنلوه السفير الألماني في باريس Hohenlohe بسط بسمارك وجهة نظره هذه بالنسبة لفرنسا . فقال ان فرنسا تستطيع ان تجد في شمال افريقية وفي تونس مجالا واسعا للتعبير عن نشاطها السياسى . وليس من المؤكد أن بزمرك بذل مجهودا لتوضيح وجهة النظر هذه لفرنسا في هذا العام ، لان وزارة اليمين في فرنسا لازالت مسيطرة

على الامور ، ثم ما كانت فرنسا في ذلك الوقت تستطيع قبول مثل ذلك العرض الذي يهدد علاقاتها الودية بانجلترا واطاليا ويؤثر تأثيرا سيئا في علاقاتها مع روسيا .

ولكن انتخابات سنة ١٨٧٧ في فرنسا . ووصول الجمهوريين الى الحكم في اواخر هذه السنة كانت عاملة على تحقيق سياسته الجديدة . فالجمهوريون كانوا قد صرفوا النظر عن سياسة التحالف مع روسيا . وعمدوا على توثيق الصلات بين باريس وبرلين ؛ بان بعثوا الى برلين سفيرا جديدا معروفا بصداقته لالمانيا هو سان فالير Saint-Vallier . ولما كانت سنة ١٨٧٨ فاتحة لعلاقات جديدة بين فرنسا والمانيا ؛ فالجمهوريون في فرنسا مصممون على اتباع سياسة سلمية ، وحتى زعموهم من مثالي جامبوا Gambetta تركوا مؤقنا سياسة الانتقام ، وفضلوا ان ينسوا الى حين مسألة الاتراس والثورين ليؤكدوا روابطهم بجارتهم على نهر الراين ؛ وعلى اساس ذلك اصبح بسمارك مستعدا لارضاء مطالب فرنسا الاستعمارية وخاصة في تونس .

واما من حيث انجلترا ، فلقد تغير موقف الحكومة الانجليزية بالنسبة لتونس منذ سنة ١٨٧٨ ، فعلا فكر وزير الخارجية الانجليزية سولسبرى Salisbury في ارضاء فرنسا على حساب تونس كما فكر في هذا بسمارك ، لانه في شهرى ابريل ومايو تناقش السفير الالمانى منستر Münster في هذه المسألة مع سولسبرى . ووجدت المانيا ان انجلترا موافقة على الفكرة بصفة عامة . فلقد بعث سولسبرى الى ليزنز في باريس يقول له ان تونس بطبيعة الحال امتداد لمنطقة النفوذ الفرنسى ، وكان سولسبرى مصمما على ان يحصل على موافقة فرنسا على سياسته الشرقية واحتلال انجلترا لقاعدة في شرق البحر المتوسط نظير تركه لبا حرية التصرف في امور تونس ؛ وبذلك مهدت الامور لفرنسا قبل ان تدخل الدولتان مؤتمر برلين في صيف سنة ١٨٧٨

ولقد قبلت فرنسا الاشتراك في مؤتمر برلين على اساس جملة شروط وضعتها ومن أهمها الا تعرض مناقشات المؤتمر لمسائل سوريا والاراضي المقدسة ومصر وتونس ، ووافق على ذلك أعضاء المؤتمر من الدول الكبرى ، وقصر المؤتمر بالفعل بمهمته على بحث المسائل الناشئة عن معاهدة سان ستفانو (المعاهدة الروسية التركية) ؛ ولكن اثناء انعقاد المؤتمر وبناء على خطة موضوعة

(١) انظر Newton : Life of Lyons مجلد ٢ ص ١٢٦ . والوثائق

الالمانية منستر الى بزمرك ٢٠ ابريل ١٨٧٨ ؛ صحيفة Times ٥ ابريل

١٨٨١ .

أرغمت إنجلترا الباب العالي على الموافقة على احتلال انجليزي بقبرص والا عملت على تدمير دولته . واعتقدت فرنسا حين وصلت أنباء هذا الاتفاق إليها أن المعاهدة التركية الانجليزية الخاصة بقبرص قد قلبت الوضع السياسي في البحر الابيض المتوسط بطريقة لا يرضاه القانون ولا يقرها العرف الدولي ولا تقبلها السياسة الفرنسية ايا كان نوع الحكومة في باريس .

علم وادنجتون Waddington وزير خارجية فرنسا ورئيس مندوبيها في المؤتمر بهذه المعاهدة قبل انقضاء المؤتمر بعدة ايام ، فكان اضطرابه وقلقه عظيما ، وثارث نائرة الرأي العام الفرنسي لامضاء هذه المعاهدة وراء ظهور الدول ، ولما انطوت عليه من ضمان تفوق النفوذ الانجليزي في شرقى البحر الابيض المتوسط وانتقدت الصحف الفرنسية السياسة الانجليزية انتقادا لأدعا ، وطالبت احدى الصحف، وهي الريبليك فرانسيز Republique Française صحيفة الجمهوريين ممثلى فرنسا بمغادرة المؤتمر دون امضاء معاهدة برلين ، وحملت على سياسة إنجلترا بشدة ، وبينت ان المعاهدة التى احتل بها الانجليز قبرص قد جعلت من سلطان تركيا تابعا لملك إنجلترا (١) . وقالت احدى الصحف الاخرى أن سياسة إنجلترا قد أصبحت سياسة نفعية صرفة ، سياسة التجارة في الدول والشعوب ، واعلنت انه بامضاء هذه المعاهدة قد تضعض نفوذ فرنسا في الشرق الادنى (٢) .

ثم تغيرت فجأة لهجة الصحافة الفرنسية ، واخذت تسترسل في تبرير سياسة إنجلترا . وكان هذا التغير الفجائى نتيجة للاتفاق الذى تم سرا بين وادنجتون وسولسبرى في برلين ، ذلك الاتفاق السرى لم يعد امرا سرا بعد ذلك بثلاث سنوات .

كيف تم ذلك الاتفاق ؟ . لقد سر بسمارك رئيس المؤتمر من سلوك ممثلى فرنسا في المؤتمر ، وخاصة بعد ان وجد هو وممثلو إنجلترا أن موقف إيطاليا قد أصبح مرييا لا يبعث على الثقة والاطمئنان (٣) .

ولم يعلم ممثلو ايطاليا بمعاهدة قبرص الا من الصحف التى نشرت اخبارها . ولقد اتصل سولسبرى بوادنجتون وأخبره بأمر قبرص ، فبين وادنجتون أن

(١) بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٧٨ .

(٢) Le Constitutionnel ١٣ يوليو ١٨٨٧ .

(٣) فلقد وقف كورتى Corti رئيس ممثلى ايطاليا في المؤتمر موقفا اشتتم منه الالمان والانجليز روح الصداقة لروسيا والعداوة للنمسا ، ولذا لم يكن بزمرك رفيقا بالساسه الطليان ولا مجاملا لهم ولا حريصا على مصالح ايطاليا .

الراى العام الفرنسى فى ثورة عنيفة وان هذه الاتفاقية هى فى الواقع اذلال جديد لفرنسا وهزيمة كبيرة لسياسة الجمهوريين قد تودى بمركزه السياسى، وانه لذلك ليس امامه الا مفادرة المؤتمر .

وكان كل من سولسبرى وبسمارك قد استعد لمواجهة ذلك الموقف. ولذا فقد شرح سولسبرى لودنجتون روح الود الذى تنطوى عليه سياسة انجلترا نحو فرنسا ورغبة الحكومة الانجليزية فى تمويض فرنسا وارضايا وذلك بان تترك لها حرية التصرف تامة فى مصر تونس ، وان السياسة الانجليزية لن تعمل على ايجاد تغيير فى حالة الشرق الادنى السياسية دون استشارة فرنسا ودون موافقتها . وانه اذا كانت للنمسا مهمة تؤديها للحضارة فى البلقان ، وانجلترا فى تركيا الاسيوية ، فمهمة فرنسا بلا شك فى تونس وشمالى افريقية . وهذا هو تفسير ملاحظات سولسبرى لودنجتون فيما يختص بتونس «افعاوا ما تشاؤون هناك ، وستضطرون الى احتلالها - انكم لا تستطيعون ترك قرطاجنة طويلا فى يد البرابرة » (١) وايد بسمارك بكل ارياح قول سولسبرى ببسمارك لم يكن يحترم تركيا ولا تهمة سلامتها ولا يعابى مصر تلاقية تونس طالما ارضى اصداقاه . تم هذا كله فى برلين دون علم احد من اعضاء المؤتمر المنمقد بهذه المدينة .

وهنا قد يثور هذا السؤال ، من هو صاحب الفكرة فى الاصل ، هل هو سولسبرى او بسمارك . ومن الطبيعى ان يكون ببسمارك هو الذى فكر اولا فى هذه المسألة ، ويقول بورجوا Bourgeois وباجس Pagès المؤرخان الفرنسيان (٢) ان ببسمارك هو الذى عرض المسألة فى برلين على وودنجتون لما عرفت مسألة قبرص وانه هو الذى ارغم انجلترا على ان تحذو حذوه . ويدلان على وجهة نظرهما بالامتعاض الذى ابداه سولسبرى فيما بعد لتسجيل فكرته كتابة حين طلب منه وادنجتون ذلك . والواقع غير ذلك فرأى المؤرخين الفرنسيين ناشىء من الفكرة التى تقول ان سولسبرى لم يفكر فى هذا الموضوع قبل ذهابه الى برلين . وهذه فكرة كما رأينا غير صحيحة . فسولسبرى فكر فى هذه المسألة جديا حين فكر فى مسألة قبرص لكى يستطيع اسكات فرنسا اذا هى احتجت على احتلال الانجليز لهذه الجزيرة ؛ وحدث ان نضجت هذه الفكرة فى ذهن سولسبرى فى وقت نضجت فيه ذهن المستشار الالماني لسبب آخر . وشهادة وادنجتون نفسه لا تترك اى شك فى ان الذى عرض الفكرة اولا فى

(١) انظر Safwat : Tunis and The Great Powers ص ٢١٢ .

(٢) فى كتابهما Les Origines et Les Responsabilités de la

Grande Guerre صفحات ١٩١ ، ١٩٢

برلين هو سولسبرى ويقول ان بسمارك هو الذى وافق على المقترح الانجليزى .
وذلك فى رسالته المؤرخة ٢١ يوليو ١٨٧٨ الى هاركورت سفير فرنسا
فى لندن (١) .

وقبل ان يغادر مندوبو فرنسا المؤتمر - كما يروى جبريل هانوتو ، كتبوا
بما حدث بشأن تونس الى رئيس الجمهورية المارشال مكماهون ، فما ان وقع
نظر المارشال على هذه الوثيقة حتى صاح : « انهم يريدون اثارا ايطاليا ضدنا ،
لا يستطيع الموافقة على ذلك ، انا لا اقبل الدخول فى حرب اخرى » ، ووافق
مجلس الوزراء على آرائه . وهناك رواية مناقضة لهذه تماما يرويها وزير
الداخلية الفرنسية فى ذلك الوقت مارسير Marcère بان المارشال والجنرال
سانزى كانا متفقين فيما بينهما على ضرورة تونس للجزائر . وان المارشال وافق
على عمل وادنجتون لما سيسبغه ذلك على عهد رياسته للجمهورية من مجد
وعظمة (٢) .

ومما لاشك فيه ان كلا من المارشال والحكومة لم يعضد فكرة الاستفادة
الناجزة من المقترح الانجليزى الالمانى ، فلم يفكرا جديا فى اتخاذ خطوة عملية
لاحتلال تونس حتى لا تقع فرنسا فى خلاف شديد مع ايطاليا قد يؤدى الى
وقوع حرب بينهما .

ترك سولسبرى للفرنسيين حرية التصرف فى تونس ، ولكنه رفض رفضا
تامنا ان يعطى فرنسا اى وعد بالتأييد ضد ايطاليا اذا وقعت فرنسا فى خلاف
مع هذه الدولة . وعندما رجع وادنجتون من المؤتمر بين المارشال مكماهون وجهة
نظره فوافق عليها ولاحظ ان فرنسا يجب الاتضيق هذه الفرصة الذهبية
وخاصة بالنسبة لبلاد تطلع فرنسا فى تفوق نفوذها فيها من مدة طويلة .

ولقد رأت فرنسا ضرورة الاحتفاظ بالفضيلة التى عرضت عليها فى برلين .
وكانت آراء الساسة فى فرنسا متجهة الى المحافظة على الامبراطورية الفرنسية
والزيادة فيها ما مكنت الظروف ، فلقد اصبح لشمال افريقية جاذبية خاصة
وسحر عند الفرنسيين ، وتعالى اصوات الاقتصاديين المؤمنين بالاستعمار
بضرورة الاستفادة من نشاط فرنسا المتدفق فينادى بول لروى بوليو
Paul Loroy Beaulieu « الاستعمار لدى الشعوب الحديثة » « يجب ان
نذكر هذه الحقيقة لامتنا . يجب ان نطرد الافكار التى تؤدى بنا الى كوارث

(١) الوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد ٢١٠٢

٢١ يوليو ١٨٧٨

(٢) فى La France Contemporaine مجلد ٤ ص ٢٨٨ .

جديد فامام خمسة وأربعين مليوناً من الألمان الذين سيصيرن ستين في مدى
عشرين عاماً لم تعد فكرة الانتقام فكرة صائبة » (٢) .

فيجب إذن أن تحول فرنسا انظارها ، فتطرح فكرة الانتقام من المانيا
حانيا الى الاستعمار خارج أوروبا ، فليس من صالح فرنسا أن تفقد حيويتها
ونشاطها في الحزن أو التأسي على الماضي ، وإنما ضروري لها الحركة والنشاط .
ففي شمال افريقية تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها وحيويتها دون التعرض
لاى اذى أو خطر . لقد وضعت فرنسا كما رأت في شمال افريقية أساساً
لامبراطورية فرنسية ونقطة ارتكاز منها تستطيع أن تؤدى رسالتها للحضارة .

رأت فرنسا ضرورة الاحتفاظ بتونس لنفسها ، ورأى فريق من رجال
الحرب ضرورة الإسراع باحتلال هذه البلاد ، ولكن فرنسا ما برحت غير مستعدة
للقيام بخطوة حاسمة بالاستيلاء بالقوة على تونس ، فالانتقام من المانيا لازال
حلماً قومياً ، وكان رجال حزب الانتقام يرون أن كل مخاطرة عسكرية في
الخارج لا يكون الغرض منها استرجاع الأضرار والورين جريمة لا يغتفرها
الوطن ، وفوق ذلك لازالت ذكريات مفاخرات الامبراطورية الثانية عالقة في
الاذهان تثير الحذر والتريث ، وكان اهتمام فرنسا الاول هو المحافظة على
مركزها في أوروبا ، فهي لا تريد اثاراً مشاكل قد تفقدها عطف إحدى الدول
الكبرى ، كذلك ولو أن الجيش الفرنسي قد وصل الى درجة لا بأس بها من
القوة الا ان دخول السياسة فيه ما كان عاملاً على استتباب النظام الدقيق بين
صفوفه ، فلقد كان الجيش في فترة تحول الى الجمهورية ، وكذلك كان عدم
استقرار النظام الجمهورى داعياً الى التريث وزيادة الحذر والاهتمام قبل كل
شيء بنشر الدعاية للجمهورية وتقوية مركزها داخل فرنسا . ثم هناك كان
الحذر والخوف من المانيا والشك في وعودها وخشية اثاره عداوة ايطاليا .

كل هذا دعا الى التفكير والتردد ، ووصلت الحكومة بعد امعان النظر الى
أن خير الحلول في ذلك الوقت ربما كان الاقتصار على مد النفوذ السلمى ،
وتركت فكرة الإسراع الى الاحتلال ، ولكن الحكومة الفرنسية صممت على أن
يكون النفوذ الفرنسي في هذه البلاد متفوقاً تفوقاً لا ينازعه احد . وعزمت
كذلك على ان تطلب من أوروبا الاعتراف بتفوق نفوذ فرنسا ، وصممت على أن
تمنع بالقوة كل دولة تحاول تثبيت أو تنمية نفوذها في هذه البلاد .

كان هذا رأى وادنجتون بعد رجوعه من برلين ، وكان اول خطوة خطاها

Carroll : French Public Opinion and Foreign Affairs عن (٢)

صفحات ٨٥ ، ٨٨ .

هي ان يأخذ من انجلترا ضمانات كتابية ، يسجل موقفها الذي قرره لورد سولسبري شفويا في برلين . وقبل ذلك في ١٩ يوليو اتصل وادنجتون بقتضيه في تونس ، واخبره ان فرنسا قد تضطر الى فرض حمايتها على تونس ، وطلب منه الاستنارة في المسائل الاتية : هل ن الممكن اقناع الباي سلميا بمقد معاهدة اتحاد مع فرنسا يعترف فيها بالحماية الفرنسية واحتلال فرنسا لبعض المراكز الاستراتيجية مثل جوكنا وبنزرت . واذا رفض الباي ذلك الاقتراح هل لدى تونس قوة كافية للدفاع عن نفسها ، وكم من الجنود تتطلبه حملة فرنسية لا رغام الباي على قبول المطالب الفرنسية ؟ هل هناك خطر في احتلال إيطاليا لطرابلس (١) .

وفي اليوم الثاني وصلت آراء القنصل باريز : قد يستطيع الباي ان يقبل الحماية لسوء حالة البلاد المالية ، ولكن ليس لدى الباي قوة يستطيع ان يدافع بها . والاهالي ميالون للسلم ، وليس لديهم السلاح ولا التدريب اللازم للحرب واما القبائل فيستطاع عزلها في الجبال ، وخير طريقة تستخدمها فرنسا هي ان رويستان بصفته الشخصية يفاوض الباي في امر الحماية ، وبهذا لا يخرج مركز الحكومة الفرنسية اذا رفض الباي مطالب القنصل الفرنسي .

وفي هذه الاثناء وصلت اخبار سارة من لندن فلقد رجع ديزريلي Disraeli من المؤتمر الى لندن وأعلن في مجلس اللوردات « حسن الصلة بين فرنسا وانجلترا » ، ووصف فرنسا بانها احدي دول العالم الكبرى وان انجلترا كانت تعمل دائما على كسب ود فرنسا . ولذا انتهز وادنجتون هذا الظرف المواتي واتصل بالمركيز دي هاركورت سفيره في لندن ، وبعث اليه برسالتين مؤرختين ٢١ يولييه ، وبهما تفصيلات عن المحادثات الخاصة التي دارت بين وادنجتون وسولسبري وبيكونزفيلد في برلين . والرسالة الاولى تختص بمسائل مصر والشام . . . والثانية ، وهي التي تهمننا في هذا المقام ، خاصة بتونس : ففي برلين تناقشت فرنسا وانجلترا في مصر تونس في اكثر من محادثة ، واكد بيكونزفيلد ما صرح به سولسبري من عرض تونس على فرنسا . واصر وادنجتون على ان تسجل انجلترا تصريحاتها كتابية ، والا اتخذت العلاقات الفرنسية الانجليزية شكلا آخر (١) .

ولقد غضب سولسبري من تسرع وادنجتون ، لانه اي سولسبري لم يكذ

(١) انظر اوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد

٢ رقم ٢٢٨ .

(١) نفس المرجع السابق أرقام ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

يستريح من اعمال المؤتمر المضنية ومن مهاجمة جانب من الراى العام البريطانى لماهدة قبرص حتى يجد فرنسا مصرّة على تسجيل اقواله، كذلك كان سولسبرى قد عرف عدم ارتياح ايطاليا الى قرارات مؤتمر برلين، فآى تصريح عنلى من ناحيته بالنسبة لتونس قد يدعو ايطاليا الى الاسراع الى عقد تحالف مع روسيا أو عرقلة تنفيذ قرارات مؤتمر برلين . ولم يكن غضب سولسبرى راجعا الى ندمه على ما فعل فى مدينة برلين كما يظن البعض .

ولما قرأ السفير الفرنسى الرسالتين لسولسبرى ازاد غضب الاخير ، فلقد وجد ان اللهجة العادية التى استخدمها مع وادنجتون قد سجلت فى وثيقة رسمية قد تنشر فى يوم من الايام . ولذا كان يقاطع السفير الفرنسى مبديا بعض ملاحظات لاذعة . وارسل بالفعل الى سفيره ليونز فى باريس يقول له ان وادنجتون جعله يتحدث عن تونس كأنها ملكه الخاص . « والذى قلته له (اى لودنجتون) أنه اذا هيات الظروف لفرنسا احتلال تونس فانجلترا لن تقدم أى اعتراض » ، وقال سولسبرى للسفير الفرنسى ان انجلترا لا تستطيع التصرف فيما لاتملك ، وأنه يود ان يكتب وادنجتون تصريحات برلين فى لهجة سياسية وأنه أى سولسبرى لن يستطيع الاجابة عليها قبل ان يستشير مجلس الوزراء الانجليزى .

وله يرق السفير الفرنسى موقف سولسبرى ، فبعث الى وزير الخارجية الفرنسية يذكره بأن سولسبرى ربما يكون قد غير أفكاره . على ان سولسبرى عرض المسألة على بيكونز فيلد ورأى الاثنان ان ليس من حسن السياسة فى شىء اجبار فرنسا على الالتجاء الى المسكر الروسى ، وأنه من صالح انجلترا ان تجيب طلب وادنجتون . ولذا كان على الوزير الفرنسى ان يكتب طلبه بلهجة ملائمة ، فصاغ تصريحات سولسبرى فى برلين كالآتى : « افعلوا فى تونس ماترونة ملائمة ، ان سولسبرى يرى من المستحيل بقاء النظام الحالى فى تونس وأنه على فرنسا . كما ترى الحكومة الانجليزية ان تقوم باصلاح هذه البلاد . »

وأجاب سولسبرى على ذلك فى ٧ اغسطس ، ووصف مادار بينه وبين وادنجتون من محادثات فى برلين ، واعترف بضرورة تفوق نفوذ فرنسا فى تونس ، ولكنه اصر على ان تكون هذه الوثيقة سرية لاتديعها فرنسا الا بعد موافقة انجلترا ، كما انه بين لفرنسا ضرورة اعتمادها على نفسها فى حالة اعتراض ايطاليا (١) .

Vol. 143. Granville Papers - Printed for the (١) انظر
use of the Cabinet.

Public Record Office وهذه الاوراق لم تنشر بعد وموجودة فى ال

في هذه الوثيقة يقول سولسبري : « بان انجلترا رات بسرور عظيم نجاح التجربة التي قامت بها فرنسا في الجزائر والهمة الحضارية العظيمة التي تقوم بها في هذه البلاد . وان انجلترا شاعرة بان وجود فرنسا في هذه الاقطار تؤيدها قوة حربية عظيمة لا بد وان يعطيها نفوذا كبيرا في تونس ... وان انجلترا ليست لها مصالح خاصة في هذه البلاد ... » ويرى سولسبري ان النظام الموجود في تونس يستطيع ان يستمر مدة طويلة اذا لم تزعه العواصف الخارجية ، ولكن هذا لا يغير من موقف انجلترا (١) .

وبذلك انتهى قلق وادنجتون من ناحية انجلترا ، وعاد الى قنصله في تونس ، يطلب منه ان يصف له الاثر الذي تركته الشائعات عن عرض انجلترا ، وان يبين موقف كل من القنصلين الانجليزي والايطالي ، ثم على روستان ان يعد مشروعا لمعاهدة مع الباي تقرر الحماية على تونس ، ثم عليه ان يقرر عن الموقف المالي والسياسي في هذه البلاد (٢) .

ويبعث روستان بأرائه وسافر الى باريس بنفسه وبقي فيها جانبا كبيرا من اغسطس سنة ١٨٧٨ ، ولكن لم تستطع الوزارة الفرنسية ان تصل الى رأى نهائي بشأن الحماية ، فهناك عقبات لا بد من تليلها ، فلا بد ان تضع فرنسا حدا لنشاط القنصل الانجليزي ريتشارد ود ، ثم هناك مسألة معارضة ايطاليا فلا بد من التفكير في تعويضها ، وعلى فرنسا ايضا ان تعمل حسابا للشعور الاسلامي الذي ثارت تأثيرته نتيجة لمعاهدة برلين ، ولذا اجل موضوع الحماية الى حين .



عرفنا ان الاتفاقية بين وادنجتون وسولسبري كانت سرية ، ولكن الجو في تونس امتلا بالشائعات عن هذه الاتفاقية فلقد نشرت صحيفة نمساوية وهي مونتاچز بلاط *Montagsblatt* بان انجلترا اهدت تونس لفرنسا ، ولكن وادنجتون رفض هذه الهدية بحجة انه يريد ان يرجع من برلين نظيف اليدين . ونقلت الصحف التونسية ذلك الخبر - فاثارت الدهشة والذعر في تونس ، فالباي لم يكن يستطيع ان يتكهن بالدواعي التي جمعت الانجليز يفيرون سياستهم ، وكان امامه دائما مصير الجزائر يقض مضجعه . واما القنصل الانجليزي فقد اخذ ينمي مجهود حياته كلها ، واما الجالية الايطالية في تونس

(١) نفس المصدر ، T. 2 1ère Série D. D. F. رقم ٣٢٤ .

Newton: Lord Lyons مجلد ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ،

فما كانت تستطيع ان تصدق ان اى وزير ايطالى يستطيع الموافقة على انمام هذه الصفقة لفرنسا .

لم يفض سولسبرى لقنصله بما حدث حقيقة في برلين ، بل جعل الامر سرا مكتوما عنه فحين استفسر القنصل الانجليزى من حكومته عن حقيقة الموقف حتى لا يترك الجو السياسى تسممه شائعات قد تكون غير صحيحة ، لم يجب سولسبرى اجابة مقنعة وانما اقتصر على ان ذكر لمثله في تونس بان حكومة جلالة الملكة م تعرض على فرنسا ضم تونس ، وهذه الرسالة كما تدل الفاظها فقط لا تختلف مع ما حدث فلم تطلب انجلترا الى فرنسا ضم تونس ، وطار القنصل الانجليزى بذلك التصريح الى الباي فخفف من قلقه ، ولكنه لم يقنعه تماما فالشائعات كانت قد نجحت في كهيرة الجو السياسى (١) .

ويحسن رويستان وصف حالة الباي حين يقول : « ان الباي تنتابه نوبات قلق واطمئنان ، فيصيبه الجزع حين تردد الصحافة نبا اىطاء تونس لفرنسا ، ويصيبه بعض الاطمئنان حين يزوره القنصل الانجليزى والقنصل الايطالى فهما يحاولان ان يثبتا لديه ان مسألة تونس لم تعرض في برلين ولا في غيرها . . . وان فرنسا تريد ارهابه . . . وان حالة فرنسا الداخلية لاتسمح لها بالقاء النظر الى ما وراء حدودها » .

ولقد استغل ممثل فرنسا عذا الظرف ، فاثار مخاوف الباي من ناحية السلطان . وبين له ان بريطانيا قد عرضت بالفعل تونس على فرنسا ، ولكن فرنسا التى تريد ان تثبت لدى الباي « فضيلتها السياسية » وصادقتها رفضت ذلك العرض . ولكن القنصل الانجليزى لم يلبث ساكنا امام هذه المناورات فلجأ الى وسيلة طريفة فترجم تصريح لورد بيكونز فيلد في ١٨ يوليو ونشره في مجلة الرائد التونسى . في ذلك التصريح يؤيد لورد بيكونز فيلد تمسك انجلترا بسياسة المحافظة على ممتلكات تركيا ! واردف هذا بان قدم رسالة شخصية للباي يؤكد فيها مصلحة انجلترا في صيانة استقلاله .

ولم تستطع فرنسا قبول ذلك المسلك باى حال ، ولذا لم يحدد وادنجتون بدا من الاتصال بسولسبرى ولخص له تقارير رويستان عن مسلك القنصل الانجليزى ، وبين الاشىء يرضى فرنسا سوى سحب القنصل الانجليزى . ولم يكن سولسبرى سعيدا حين قدم له ذلك المطلب ، ولذا اخذ يسوف في تنفيذه ، فاضطر وادنجتون الى الالتجاء الى بسمارك ، وبعث الى سفيره فى

(١) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية F.O-102/111 وورد الى سولسبرى

١٢ اغسطس ، ١٠ اكتوبر ١٨٧٨ .

برلين يستفسر منه اذا كانت المانيا تمنع في فرض حماية فرنسية على تونس .

وكانت تصريحات بسمارك في فريدرسروه (٥ يناير ١٨٧٩) أكثر مما كان الفرنسيون ينتظرون ، ودعا بسمارك الى ذلك توتر العلاقات الروسية الالمانية ، فرأى ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا ، ولذا كان حديث بسمارك مع سان فليير يفيض بالود والمجاملة فيقول : « اعتقد ان الكمثرى التونسية قد نضجت وقد حان وقت قطفها ، وان عناد الباي وعدم المجاملة هو العامل الاساسي في نضج هذه المسألة . وستفسد هذه الفاتحة او تسرق اذا تركتموها على الشجر مدة طويلة » ، ولقد اخترق بسمارك بنظره اذهان الفرنسيين وكشف عن شكهم في صدق دوافعه ، ولذا اخذ يفسر هذه الدوافع ويبين حسن نيته نحو فرنسا . انه شاعر بما يقاسيه الجمهوريون في فرنسا من صعوبات خارجية ، وانه ليس لديه مانع في تأييد جمهورية صديقة ومعتدلة وفي ارضاء شعور الشعب الفرنسي الذي اثبت حسن طويته . ولذا فهو سيؤيد مخلصا السياسة الفرنسية في البحر الابيض المتوسط ، وفي مناطق توسعها الطبيعية ، وان دافعه الاول هو السلام ، فالقيصر الالمانى يريد ان يمضى بقية عمره في هدوء ومجد وانه غير ميال الى حرب اخرى (١) .

وحمل المستشار الالمانى على مشاكسات الباي : « ذلك الحاكم الصغير المتبربر » لفرنسا ، واظهر استياءه من سياسة ريتشارد ود . واكد للفرنسيين انه كما يضمن لهم صداقة المانيا وتأييدها يضمن لهم صداقة النمسا ايضا ، وبين لهم رغبته في أن يسود الصفاء بين انجلترا وفرنسا . واتصل بانجلترا لكي تزيل كل ما يعمل لتكدير علاقاتها بفرنسا .

ونتيجة لذلك الموقف اضطر سولسبرى الى ارسال تعليمات لتصله في تونس باتخاذ سياسة الحياد ، وكان ذلك تمهيدا لاقالته . واخبر سولسبرى وادنجتون بأنه قد انتهى عمل القنصلية الانجليزية في تونس من الناحية السياسية . وتسلم ريتشارد خطاب اقالته وغادر تونس وانتهى نشاطه السياسي في ابريل سنة ١٨٧٩ ، وبدا انتهت نهائيا المنافسة الانجليزية لفرنسا في تونس .

وبقيت ايطاليا العقبه الوحيدة الاخيرة في سبيل الفرنسيين في تونس . فماذا كانت سياسة ايطاليا في هذه البلاد . في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ كان لايطاليا مركز

(١) الوثائق السياسية الفرنسية . D. D. F. سان فالير ST. Vallier الى

وادنجتون ٥ يناير ١٨٧٩ .

قوى في هذه البلاد . فإيطاليا تدعى أن لها مصالح مهمة في تونس لقربها الجغرافي ولصلاتها التاريخية بجنوب إيطاليا وصقلية، ولاستقرار عدد كبير من الإيطاليين في تونس ربما زاد على عدد أي جالية أوروبية أخرى . ولقد اهتمت إيطاليا حتى أثناء حركة وحدتها بالاحداث السياسية التي تجرى في تونس ، وحاولت التدخل تدخلا فعليا في امورها سنة ١٨٦٤ ، ودخل القنصل الإيطالي في معرفة حامية الوطيس في ميدان المنافسة مع القنصلين الإنجليزي والفرنسي ، وعمل على كسب الامتيازات لدولته وللرعايا الإيطاليين بحيث أصبح لإيطاليا المركز الثالث بعد فرنسا وانجلترا من حيث النفوذ . ولقد انتهزت إيطاليا فرصة الكارثة التي لحقت بفرنسا في ١٨٧١ فحاولت احتلال تونس ، ولولا موقف انجلترا لم للإيطاليين فرض سلطانهم على تونس وأصبح منع الفرنسيين من احتلال تونس من أهم الاسس التي قامت عليها السياسة الإيطالية .

وكانت فرنسا تعلم تماما ماهي ملامح الإيطاليين في هذه البلاد ، ولذا افكر وادنجتوتون في طريقة يستطيع بها ان يوجه انظارهم عن تونس، وظن ان طرابلس قد تكون تعويضا كافيا لهم .

ولقد اتصل وادنجتوتون بسفير إيطاليا في باريس تشالديني **Chialdini** وبين له ان فرنسا لانوى احتلال تونس دون أن تعترف لإيطاليا بحق الاستيلاء على بلاد أخرى ، ثم بعث برسالة الى سفيره في روما ، يوضح فيها وجهة النظر الفرنسية . ويحذر فيها إيطاليا . ففرنسا مستعدة لان تدفع بالقوة أي اعتداء على تونس .

لاندرى اذا كانت إيطاليا قد عرفت محتويات هذه الوثيقة ، ولكن الذي لاشك فيه ان إيطاليا لم تكن تدري ماذا حدث وراء الستار في برلين ، لقد سمعت الحكومة الإيطالية بالنائعات التي انتشرت ، ولكن سولسبرى لم يشف غلبها حين استفسرت منه عن صحتها ، فلم يعطها ردا واضحا . ومع هذه كانت الحكومة الإيطالية تشعر بأن فرنسا قد بينت النية على أن تحتل تونس يوما ما . وان الدولتين الألمانية والانجليزية تقفان موقفا غامضا .

ولقد حاول وادنجتوتون أن يستفسر في برلين عما اذا كانت المطالب الإيطالية تجد تشجيعا لدى المستشار الألماني ، فأكد له بسمارك أن ألمانيا تؤيد فرنسا تأييدا تاما وأنه قد نصح الإيطاليين بأن يتمدوا عن تونس إذ أنها منطقة نفوذ فرنسي . وكانت لهجة بسمارك نحو إيطاليا متهمكة لازعة ساخطة جارحة ، فعلاقات ألمانيا بإيطاليا بعد مؤتمر برلين كانت سيئة .

ولكن النزاع بين فرنسا وإيطاليا سيشتد نتيجة لمعاهدة برلين ، فثورة الرأي العام الإيطالي على هذه المعاهدة واتجاه اسباسة الخارجية الإيطالية

هو الذي دعا الى ذلك ، فلقد رجع كورتى مندوب ايطاليا من مؤتمر برلين خاوى اليدين بينما رجعت الدول الاخرى محملة بالفنائم ، واختل التوازن الدولي في البحر الابيض بعد احتلال الانجليز لقبرص ، وارادت ايطاليا ان تشارك مع انجلترا وفرنسا في الاشراف على شئون مصر المالية ، فرفضت الدولتان ، ولذا اتجهت ايطاليا الى تونس محاولة تعديل مركزها فيها لاعادة التوازن الى البحر الابيض ولارضاء الشعور القومي الايطالى .

بدات ايطاليا تجد انه لوضع حد لنمو نفوذ فرنسا في تونس يجب اولا الاعتراف بتونس كجزء من الدولة العثمانية ، وبذلك لا يستطيع اثاره مسألة تونس دون اثاره المسألة الشرقية كلها . ثانيا العمل على الحصول على امتيازات سياسية واقتصادية للايطاليين ، فلا تكون فرنسا صاحبة النفوذ وحدها . ثالثا تأكيد الصلات ببريطانيا لفصلها عن فرنسا ، وكانت ايطاليا مستعدة ان تعترف بتفوق المصالح البريطانية في البحر الابيض ثمنا لذلك .

وانازعت ايطاليا كل خطوة يخطوهم الفرنسيون في تونس ، وبلغ النزاع اشده في سنة ١٨٨٠ ، فأصبح صراعا واصطداما عنيفا . وبذلك النزاع في صيف سنة ١٨٧٨ حين عينت الحكومة الايطالية مسي *Mussi* ممثلا لها في تونس فحاول ان يتفق مع الباي على فرض حماية ايطالية على تونس ، فلما فشل في ذلك حاول ان يتفق مع الباي ليتنازل عن بنزرت لايطاليا او اعلانها ميناء حرا ففشل ايضا ، فلقد كان روستان يراقب اعماله ويقاومها ، واذا كان مسي قد نجح في شيء ، فلقد نجح في وضع تقرير عن موقف فرنسا واطماعها في تونس ذكر فيه ان فرنسا تعمل على ضم بنزرت اليها ، كذلك بين ان من الضروري لايطاليا ان تعين في تونس رجلا ذا خبرة بأمور الشرق حتى يستطيع الكفاح مع روستان .

وفعلا عينت الحكومة الايطالية ماتشيو *Maccio* ، وهو رجل له خبرة بأمور الشرق الادنى ، ويمتاز بنشاطه وعناده ، كان زميلا لروستان في القاهرة وببيروت ، واشتد بينهما النزاع الى درجة الخصومة الشخصية . وصل ماتشيو الى تونس في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ على ظهر سفينة حربية ، ودخل تونس تحيط به ثلة من الجنود والبحارة ، واستعرض الجالية الايطالية التي خرجت لاستقباله ودقت الطبول ، ومر في شوارع تونس مرور الابطال وسط الزهور والموسيقى والتهنئة الى ان وصل لدار القنصلية ! .

ارادت ايطاليا بهذا التصرف التأثير على الباي والجاليات الاخرى لتري اهتمام ايطاليا العظيم بأمور تونس ، ومن ذلك الحين عرفت فرنسا ان ايطاليا قد شنت على نفوذها في تونس حربا شعواء لا تبقى ولا تذر .

ولذا رأى الفرنسيون بعد أن ظفروا بتأييد بسمارك إعادة النظر في مسألة الحماية ومطالبة الباي بضمانات للمستقبل ، رأى وادنجتون ان يطلب من الباي الموافقة على حلف دفاعي يتعهد فيه الباي بان يطلب من فرنسا العون الحربى اذا اعتدت عليه اية دولة اخرى ، وذلك الحلف الدفاعى بطبيعة الحال يقتضى احتلال الفرنسيين لبعض النقاط في البلاد .

ولما قدم الباي ذلك المشروع في صيف ١٨٧٩ رفضه يؤيده في ذلك ماتشيو ، وكان قنصل فرنسا يبغي فرض المشروع بالقوة على الباي ولم يكن يروقه حذر وادنجتون ولا ترده . ولكن روستان حين لم يجد تأييدا من حكومته ، رأى ان يملا الجو بالشائعات وأن يصف الحالة في تونس وصفا مشيرا وبين ان سياسة الاعتدال قد تودى بمركز فرنسا في شمال افريقية ، وربما اتارت الخواطر على فرنسا في الجزائر ، وبالغ في امر الحوادث التى تقع على الحدود بين تونس والجزائر . ثم اشار الى ما تقوم به ايطاليا للحد من النفوذ الفرنسى في تونس .

ولكن هذه التقارير لم تحدث الاثر المطلوب في باريز ، فلقد سقطت وزارة وادنجتون وجاءت وزارة دى فرنسيه في ٢٩ ديسمبر ١٨٧٩ . ولم تحزن ايطاليا على سقوط وزارة وادنجتون ، وكانت تنتظر من الوزارة التى تخلفها ان تكون اكثر عطفًا على اماني الايطاليين ، ولكن فريسيه لم يكن اقل حماسة لمسألة تونس من سابقه ، فاقد عبر عن وجهة النظر الفرنسية بوضوح كبير . « في كل ما يختص بتونس نرى ان مصلحتنا اسيسية والاستراتيجية تقتضى الا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر اى نفوذ اجنبى ، وانا نرى ان تونس ماهى الا امتداد لمستعمراتنا الافريقية ، وان حريتنا في العمل في الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما يحدث في تونس وان سياسة الباي يجب ان تكون مرتبطة بسياستنا » (٢ يونيو ١٨٨٠) (١) .

وكان فرنسيه موقنا بان ايطاليا ان تعترف بادعاء فرنسا حق التفوق في تونس ، وانها تطالب في نفس الوقت بمركز مساو لفرنسا ، ولكن كلا من فرنسا وايطاليا لم يكن يرغب في حل متوسط . فاحتمد النزاع بين الدولتين على الحصول على امتيازات السكك الحديدية او الخطوط التلفرافية ، وقامت حرب عنيفة بين الصحافة الفرنسية والصحافة الايطالية ، فوصفت الصحافة الايطالية اعتداءات فرنسا المتكررة على ايطاليا ، وان وجود فرنسا في تونس فيه تهديد حقيقى لمركز ايطاليا البحرى ، وردت الصحف الفرنسية بالمثل .

(١) انظر الوثائق السياسية الفرنسية ، I. 3 . D. D. F. رقم ١٤٢

على أن فرنسا رأت أن تدخل الحكومة الإيطالية لتأييد الشركات الإيطالية وخاصة شركة روباتينو فيه اعتداء كبير على حقوق فرنسا وعلى الحالة السياسية في تونس . ولذا رأى فريسنيه أن من الحكمة عدم التنافس مع إيطاليا في مسألة تونس .

ولكنه صمم في نفس الوقت على أن تمنع فرنسا بالقوة أية محاولة من جانب إيطاليا للسيطرة على المشروعات الكبرى في تونس ، فمثل هذه المشروعات حق لفرنسا وحدها . ولم يخف فرنسية وجهة نظره هذه على سفير إيطاليا في باريس ، تشالديني . كما بين له أيضا أن التفوذ الفرنسي وحده هو الذي يجب أن يكون متفوقا في تونس ، ولم ينس أن يشير إلى طرابلس كمكان يصح أن تذهب إليه إيطاليا .

على أن ذلك التذير لم يفت في عضد إيطاليا ، فسارت في طريقها تعرقل مشروعات فرنسا ، وأعلنت أن في تونس مجالا متسعا لكل من إيطاليا وفرنسا ، وكانت تل مظاهر النشاط الإيطالي مثيرة لفرنسا ، فتعالت خطب رجالها بأن قرطاجنة كانت يوما ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ولذا لا يجب اليوم أن تخضع تونس لدولة أخرى ، وسارت المواكب من الإيطاليين في الملابس البراقة يضجها دق الطبول خلال شوارع تونس .

ولم يقتصر الإيطاليون على مثل هذه المظاهر بل انشأوا صحيفة في كليارى تسمى المستقل . هذه الصحيفة اخذت تهاجم الفرنسيين بصفة عامة والخلق الفرنسي بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربى الفاضل ، بل وذهبت الى نعت خلق الفرنسيين بأنه خلق منحل وفساد وان فرنسا لاتهتم بالوسائل في سبيل الحصول على رغباتها الوثنية وهى استعباد المسلمين واستغلالهم . وكانت هذه الصحيفة توزع مجانا في شمال افريقية في تونس والجزائر نفسها . واعتقد الفرنسيون اعتقادا جازما بأن كل الصعاب التي يجدونها في تونس هى من خلق الإيطاليين .

ولذا وجدت فرنسا أن الفرصة في اخذ تونس تتضاءل كل يوم وأن الوقت قد حان للقيام بعمل جدى ، لاسيما وأن الموقف الدولى الاوروبى كان يتغير بالتدريج في صالح إيطاليا ، لاسيما وأن موقف الوزارة الجديدة في إنجلترا وزارة جلادستون لم يكن وديا بالنسبة لفرنسا ، فلقد كان جرانثل وزير الخارجية مستاءا من سياسة سولسبرى الذى سبقه مصمما على اثاره العراقيل لفرنسا في تونس .

هذا الى ظهور أخطار جديدة في افق شمال افريقية مثل خطر الجامعة الاسلامية . (وليس هنا المجال للتفصيل فيه ، فلقد فصل فيه المؤلف في

جهات أخرى) فلقد وجدت فرنسا أن تونس أصبحت ملجأ للباريين والمتدمرين الجزائريين كما كانت مركزا للدعاية للجامعة الإسلامية وموتلا للدسائس والمؤامرات ضد فرنسا، ولقد وجه تيسو Jissot سفير فرنسا في القسطنطينية نظر حكومته إلى المناورات التي يقوم بها باهتمام السلطان عبد الحميد العثماني وذلك رغم انذارات فرنسا المتكررة له. ولذا رأت الحكومة الفرنسية أنه لا بد من استعمال القوة في تونس لاسيما وأنه وصل إلى علمها أن الأتراك يقومون باستعدادات حربية في طرابلس لاثارة المشاغل على الحدود. ولقد كان لموقف سان فالير سفير فرنسا في برلين أثر مهم في إثارة حكومته لتقوم بعمل حاسم، فلقد رأى أن هناك شيئا من التردد في صفوف الجمهوريين ورغبة في الانتظار حتى نهاية الانتخابات، فهو يكتب إلى وزير الخارجية باترلمى سانت هيلير يقول له: « تقول لي أنهم يريدون الانتظار حتى نهاية الانتخابات، وعند ذلك يعملون، ما هذا السخف، وما هذا التعامى... في خلال عشرة أشهر ستصرون أمام موقف جديد، أمام حملنة إيطالية على تونس، أمام تحالف سرى منظم ضدنا، وما عليكم إلا أن تراجعوا لأن الظروف ستكون مختلفة عما نحن فيه الآن. فبدلا من نزهة حربية ستكون أمامكم حرب أوربية لصيانة مستعمرتنا في الجزائر. ياورى العزيز انك وطنى غيور، وكذا مسيو جمبتا. حاول أن تراه وأن تتفاهم معه حتى لا تقاسى بلادنا اذلالا جديدا... اننى قلق وغير سعيد... واننى اود ان اجيء إلى باريس لاقتناع مسيو جمبتا وميسيو فرى وميسيو جريفى والمجلس كله بعمل ما يتطلبه الشرف القومى والمصلحة القومية... ولولا أنى لا أستطيع الاتصال بأحد منهم دون استئذناك! لكنك كتبت اليوم لميسو جمبتا اصف له الموقف واستشر حماسته القومية، يجب الا نخيب رجاء برنس بسمارك فينا، ويجب الا نتحقق فينا كلمة جورتشاكوف: ان فرنسا لم يعد يحسب لها حساب فهى لا قوة لها في الخارج... ان أوروبا تنظر الينا لتحكم علينا، ولتعرف اذا كنا نستطيع القيام بشيء، لا بد من القيام بخطوة قوية، من بذل نشاط في عمل ليس فيه خطر علينا ولا تراق فيه دماء كثيرة حتى نستطيع ان نحتل مكاننا اللائق بين الشعوب. واما اذا اثبتنا ضعفنا فسيكون لنا مركز اسبانيا في أوروبا. أر خطابى لجمبتا ولجريفى. أعد على سمعهم كلام بسمارك وكلمة برنس جورتشاكوف... يلزم أن يعرفوا أن علينا ان نختار بين مصلحة فرنسا الحيوية والمصالح الثانوية.»

وأبان سفير فرنسا في روما، دى نوال de Noailles عن مقدار الخطر بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربى الفاصل، بل وذهبت إلى نعت خلق

الإيطالي (١) فقال « انه من المستحيل الوصول الى اتفاق مع إيطاليا بالنسبة لتونس الا اذا تنازلت فرنسا عن مرتزها في هذه البلاد فخيال كيرولى (رئيس الوزارة الإيطالية) يتسع لكل شيء غير معقول وهو يتبع تحت تأثير من حوله سياسة عاقبتها الحرب مع فرنسا ، وانه لافائدة من تأجيل مسألة تونس ، بل ينبغي اتخاذ خطة حاسمة في الوقت الذي لاتزال فيه أوروبا صديقة لفرنسا .

لقد اعلن الإيطاليون علينا حربا عوانا في تونس . . . وأنهم يعملون على القضاء على نفوذنا والحلول محلنا . . سنفقد تونس ويصبح مركزنا حرجا في الجزائر ، وان تسامحنا لن يجلب لنا صداقة إيطاليا ، بل ستقاتلنا كخصوم في كل مكان . . » . وبين دي نوال كذلك أن الإيطاليين يعملون على احكام صلاتهم بانجلترا لكي تتدخل في تونس لصالحهم « فإيطاليا لاتهتم فقط بابقاء النفوذ الفرنسي من تونس بل هي تريد ان تحل محل الفرنسيين في كل أجزاء البحر الأبيض وان يكون لها المكان الثاني بعد انجلترا . . . » (١)

وامام هذه التذر كان لامفر لفرنسا من الالتجاء الى القوة المسلحة لتأديب تونس وإيطاليا معا . ولذا منذ الوقت الذي تولى فيه فرى الحكم كانت الاستعدادات على قدم وساق على الحدود الجزائرية . وفي مايو من هذه السنة ١٨٨١ وصلت الى قرب العاصمة التونسية حملة فرنسية برية كانت قد قامت من حدود الجزائر وأخرى بحرية كانت قد نزلت في بنزرت ، وتقدمت الجنود الفرنسية وعسكرت امام قصر باردو حيث كان ينزل الباي . وتقدم الجنرال بريار Bréart بمشروع معاهدة ، واعطى الصادق مدة اربع ساعات للتفكير اقتنع بعدها حاكم تونس وكان قد استنجد بالدول فلم يجد ناصرا ، اقتنع بقبول الحماية الفرنسية فامضى معاهدة باردو في ١٨ مايو ١٨٨١ . وبدا أصبحت تونس خاضعة لفرنسا في ظل نظام الحماية .

* * *

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F . 3 J. رقم ٢٤٩ الى سانت هيلير St. Hilaire يناير ١٨٨١ . جمبنا وفرى وجريشى اساطين الحزب الجمهورى في فرنسا

(١) نفس المصدر السابق تقارير دي نوال De noailles ارقام ٢٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ في فبراير ومارس ١٨٨١

لقد كان لسقوط تونس في يد الفرنسيين وقع شديد في مراكش ، فلقد ضربت فرنسا مثلا لما تستطيعه القوة ، وبعد اخذ تونس تستطيع فرنسا التفرغ لشئون مراكش التي كانت حكومتها آخذة في الضعف تدريجيا ، لاسيما وأن الفرنسيين يستطيعون تبرير القيام بأية أعمال حربية على الحدود المراكشية ، فمنذ عهد بعيد قامت المناوشات بين القبائل الجزائرية والقبائل المراكشية ، كما أن عددا كبيرا من النوار الجزائريين كانوا يجدون دائما لهم ملجأ في مراكش ، ولقد تدخلت مراكش بالفعل في النزاع الذي قام بين فرنسا والامير عبد القادر الجزائري وساعدته بالامداد والرجال .

والواقع ان الموقف في مراكش كان جسد خطير ، فلقد كان سلطان مراكش لا يستطيع منع الهجرة الى بلاده ، ولا منع القبائل من التنقل بحرية في منطقة الحدود الجزائرية المراكشية . ولم تكن هناك حدود طبيعية واضحة بالفعل بين مراكش والجزائر تقف في سبيل الغزو والتنقل بين القطرين .

ولم يكن مسلك الفرنسيين في الجزائر أو تونس باعشا على الاطمئنان في مراكش فلقد أصبحت مراكش تعتقد أن فرنسا ستعمل على بسط نفوذها على مراكش وهي بالفعل تشجع عددا كبيرا من المراكشيين على اكتساب الحماية الفرنسية وتسير حثيثا في تحصين النقاط الفرنسية .

لقد كانت مراكش في موقف دقيق للغاية فبجانب المطامع الفرنسية التي تنذر مستقبل البلاد بخاطر كبير ، كانت اسبانيا محتلة بعض النقاط الساحلية في الشمال حول مليلة . واهتمام اسبانيا بشئون مراكش قديم منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . واسبانيا ترى منذ عهد ايزابيلا بأنه لا اطمئنان حقيقيا لها الا بعد الاستيلاء على الشواطئ المراكشية المجاورة لها . ولقد اعترفت مراكش نفسها بمركز الاسبان في مليلة في جملة معاهدات في أواخر القرن الثامن عشر وفي أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر . ولكن وجود الاسبان في هذه المنطقة كان دائما مصدر نزاع كبير بين اسبانيا ومراكش . وهذا النزاع دعا في بعض الاحيان الى قيام الحرب كما حدث في أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا دائما حريصة على ألا تقع مراكش في يد أية دولة أخرى ، واذا كان لنفوذ أية دولة أن يتفوق في هذه الاقطار فيجب أن يكون ذلك النفوذ اسبانيا .

ولم تكن انجلترا تجهل قيمة مركز مراكش فمراكش مركز استراتيجي ممتاز في المحيط الاطلنطي وفي البحر الابيض المتوسط . بل كانت تهتم بمسألة مراكش اهتماما كبيرا للمصالح الانجليزية في البحر المتوسط ولسيطرة الانجليز على مدخل ذلك البحر من ناحية الشرق ومن ناحية الوسط (في ساطه) . ولا اهمية كبيرة

لمركز الانجليز المتفوق في مالطة او قناة السويس اذا سيطرت دولة معادية لانجلترا على السواحل المراكشية . وما كان الانجليز يخشونه خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر هو سيطرة فرنسا على مراكش وانشاء قاعدة بحرية قوية في سبته ، وكانت تراقب تقدم النفوذ الفرنسي في هذه الاقطار بشيء كبير من القلق . وتمنت لو قامت حرب المانية فرنسية تضع حدا لما رآته من العدوان الفرنسي في هذه الجهات .

لم تكن انجلترا تفكر في احتلال مراكش ولكنها ماكانت تبغى ان تقع مراكش فريسة لاي غزو اجنبي قد يقضى على استقلالها . وبجانب مصالح الانجليز الاستراتيجية بمراكش كانت مصالحهم الاقتصادية والتجارية . فلقد حرصت انجلترا على الحصول على امتيازات تجارية في مراكش وارسلت لذلك في التسعينات للقرن التاسع عشر (١٨٩٢) بعثة سير تشارلز سميث لم ينجح مسعاها فأردفتها بارسال بعثة أخرى .

واما المانيا فلم تلتق بالا لشئون مراكش في السنوات العشر التي تلت الوحدة الالمانية ، وظهر ذلك واضحا في مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ . ولكن اهتمام المانيا بالاستعمار منذ سنة ١٨٨٤ وخاصة بعد سنة ١٨٨٧ جعلها تلتقي نظرة طمع في اتجاه مراكش بل واخذت تفكر جديا في احتلال محطة في مراكش في سنة ١٨٨٨ ، تقدمت المانيا بذلك بالطلب بالفعل الى السلطان ، ولكن ذلك الطلب باء بالرفض ، ولم تحزن الدول الاوربية الكبرى الاخرى .

واما ايطاليا فلم يكن يسرها ابدا تقدم النفوذ الفرنسي في مراكش بعد ان فرضت حمايتها على تونس ، فكان يودها لو تراكت العراقيل والعقبات امام النفوذ الفرنسي في هذه الجهات . وربما طمعت ايطاليا في يوم من الايام ان تضع قدميها في مراكش ، ولكنها كانت تعود فتري ان ذلك حلم لا يمكن تحقيقه ، فما كانت الدول الكبرى وخاصة فرنسا تسمح لها بذلك .

سقطت تونس في يد الفرنسيين في ١٢ مايو ١٨٨١ ، وفي صيف هذه السنة تقدم سلطان مراكش الى سير درمندهاتى القنصل الجنرال الانجليزى بأن يحمل الى حكومته في لندن استنجد السلطان بيا عليها تتخذ الخطوات اللازمة لمنع الفرنسيين من فرض حمايتهم على بلاده ، ووجدت الحكومة البريطانية من صالحها في ذلك الوقت القيام بهذه الخطوات ، ولذا فقد حذرت الحكومة الفرنسية من غزو الحدود المراكشية ، ونصحت السلطان في الوقت نفسه بان يقتنع القبائل المراكشية بضرورة عدم التدخل في مشكلة الجزائر .

وامام موقف انجلترا الجدى وجدت الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة الى ان تكرر لوزارة جلاستون انها ستحترم سيادة السلطان في مراكش ،

واضافت الى ذلك بانها ستقف كذلك امام مطامع الاسبان في هذه الجهات ، وكان الاسبان يؤملون ان تكون مراكش من نصيبهم ، لاسيما بعد وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية .

وكان قيام النزاع بين فرنسا واسبانيا من ناحية ، وزيادة نفوذ انجلترا

والمانيا من ناحية اخرى ، عاملا على تأخير بسط نفوذ فرنسا ومع ذلك فلقد عملت فرنسا منذ استيلائها على الجزائر على الايتفوق نفوذ دولة اخرى في مراكش ولذا فهي تراقب سير الامور في هذه البلاد عن كثب وبمناية فائقة . فتغير مركز مراكش السياسي يؤثر بلا شك تأثيرا كبيرا في مركز الفرنسيين في الجزائر . ففرنسا حريصة جدا الحرص على الاتسود الفوضى في مراكش حتى لا يتسرب شررها الى الجزائر . وهي حريصة على الا يسود النفوذ الانجليزى في هذه البلاد ، فسيادة الانجليز في هذه الاقطار معناها قلب التوازن الدولى في البحر الابيض ، وخاصة وان الانجليز يسيطرون على جبل طارق ، فلو استطاع الانجليز ان يسيطروا على الجانب الافريقى المقابل لجبل طارق اذن لاصبح مركز فرنسا في البحر المتوسط ميتهجيلا ، ولا استطاعت انجلترا ان تطلق ذلك البحر ، وتقطع المواصلات البحرية بين سواحل فرنسا المطلة على البحر المتوسط وسواحلها الغربية .

على ان انجلترا ما كانت مستعدة ابدا طوال القرن التاسع عشر لان تترك فرنسا تحتل مراكش او اجزاء منها او يكون لها النفوذ المتفوق فيها ، وخاصة بعد ان سيطرت فرنسا على الجزائر واحتلت تونس وناوعت الانجليز العداء في مصر . وكان موقف المانيا من العوامل التي دعت الى عدم توسع فرنسا في هذه البلاد ، فلقد عنيت المانيا بشؤون مراكش وعضدت مطالب الاسبان ومطامعهم في السواحل الشمالية المواجهة لاوربا ، وما كانت تسمح مطلقا بان تكون فرنسا صاحبة النفوذ الاوحد في هذه الجهات . على ان موقف كل من انجلترا والمانيا واسبانيا لم يمنع فرنسا من مواصلة جهودها لاحراز التفوق السياسى والاقتصادى في مراكش ، واحرزت جهودها هذه بعض النجاح وخاصة بعد ان سيطر الانجليز على مصر ، فلم يكن مركزهم قويا لمطالبة الفرنسيين بالاعتدال في التوسع السياسى والاقتصادى في مراكش . اتبع الفرنسيون في مراكش نفس الخطة التي اتبعوها في تونس قبل الحماية ، واصبح من المعترف به دوليا ان للفرنسيين مركز خاص في مراكش نظرا لقرب هذه البلاد من الجزائر . ولم تنجح محاولات الالمان كثيرا في التقليل من شان فرنسا في هذه البلاد .

على ان محاولات فرنسا للتفوق في مراكش لم تلق تأييدا من الانجليز بل بالعكس اذا اشتد في وقت طويل النزاع بين الدولتين . ولولا هذا النزاع

وهذه المناقشة لاستطاع الفرنسيون اكتساح مراكش كما اكتسحوا تونس من قبل . فمسألة مراكش اذن لها صلة كبيرة بالعلاقات الانجليزية الفرنسية في العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ووتكيفت مرارا بالظروف التي مرت فيها هذه العلاقات . فطالما كانت فرنسا مناوئة للانجليز في مصر لم تكن تنتظر الا ان تجد من الانجليز كل مناوئة وكل عرقلة في مراكش . وطالما خفت وطأة الفرنسيين في مهاجمة انجلترا في وادي النيل هدأت المناقشة الانجليزية في مراكش .

على ان فرنسا لم تهذا ثأرتها ضد الانجليز فظلت تهاجمهم بكل عنف وترقل مشاريعهم وخاصة الادارة المالية في مصر ، وبلغ النزاع بين الدولتين اشده في مسألة فاشودة التي انتهت بهزيمة سياسية ساحقة لفرنسا ، اضطرت فيها على التقهقر على طول الخط وسلمت بمطالب المصريين والانجليز في السودان .

في ازمة فاشودة فهمت فرنسا قوتها الحقيقية وتيقنت من قوة انجلترا وعزمها على تنفيذ مطالبها في شمال شرقي افريقية ولو ادى ذلك الى الحرب . ولقد اثبتت ازمة فاشودة ان فرنسا لن تستطيع الاعتماد على تحالفها مع روسيا ، ما أنها لا تستطيع مناوئة انجلترا ، وجدت فرنسا ان من الاصلح الاتفاق مع انجلترا وخاصة وانه لم يكن من السهل عقد اتفاق بين فرنسا

والمانيا لمسألة الايازاس واللورين لازالت جرحا داميا في قلب كل فرنسي . ووجدت انجلترا من جانبها ان المناقشة المالية القوية بينت لانجلترا الخطر الكبير الذي سينجم عن سياسة التباعد مع فرنسا . فهي بلا ريب تعمل على تأمين مركزها في مصر والبحر الابيض وهذا لا يكون الا بالاتفاق مع فرنسا . جعلت انجلترا وسيلتها للتقارب من فرنسا مسألة مراكش . فكان الانجليز مستعدين لان يتنازلوا عما لا يملكون في مراكش لتعترف ليم فرنسا بحقوق يملكونها فعلا في مصر .

ولقد بدأت المفاوضات بين انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المتنازع عليها بينهما وذلك في صيف سنة ١٩٠٣ . وظهرت في هذه المفاوضات رغبة الفرنسيين في فرض سيادتهم على مراكش . وكان لورد كرومر ، وهو عليم بما يلاقه الانجليز من عنت ومتاعب في مصر نتيجة لمعارضة فرنسا ، يرى ان مركز انجلترا في مصر متوقف الى حد كبير على رضا فرنسا ، ولن ترضى فرنسا حتى تجاب مطالبها في مراكش (١) .

(١) ème Série D. D. F. جزء ٤ رقم ٣٦ . دلکاسه الى بول كامبون ٢٤ اکتوبر ١٩٠٣ Zetland: Cromer ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ . 2 èmè

وتم الاتفاق أخيراً بين الدولتين ، ووقع الاتفاقية عن فرنسا بول كاهيون
سفير فرنسا في لندن ، ولانزدون وزير الخارجية الإنجليزية عن إنجلترا . وفي
هذه الاتفاقية أعلنت الحكومة الإنجليزية أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر
السياسي ، وأعلنت حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنها لن تعرقل
عمل الإنجليز في مصر ونظير هذا تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها
لن تعمل على تغيير مركز مراكش السياسي ، وتعترف حكومة جلالة الملك
البريطانية بأن من حق فرنسا كدولة متاخمة لمراكش السهر على سلامة
مراكش وأمنها ومساعدتها في كل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية
والمالية والحربية التي هي في حاجة إليها . وأعلنت حكومة جلالة ملك إنجلترا
أنها لن تعرقل أعمال فرنسا في هذه البلاد وأعلنت الدولتان معا احترامهما
لحرية التجارة في كل من القطرين ، كما اتفقت الدولتان على عدم تسليح
الساحل المراكشي المواجه لجبل طارق وعلى احترام حقوق إسبانيا في الجزء
من مراكش الواقع معظمه على البحر الأبيض المتوسط (١) .

وبهذه الاتفاقية أطمأنت فرنسا على مركزها في مراكش . فلقد زالت
معارضة إنجلترا لتفوق النفوذ الفرنسي في مراكش ، وضمنت فرنسا كذلك
تأييد إنجلترا لفرنسا إذا حاولت دولة بحرية قوية تهديد مركز الفرنسيين في
هذه البلاد . ولقد ظهر هذا التأييد بالفعل وأضحوا حين حاولت ألمانيا إثارة
صعوبات أمام الفرنسيين في مراكش وحين حاولت بالفعل تقوية النفوذ الألماني
في بلاط السلطان . وقفت إنجلترا إلى جانب فرنسا ، واضطرت ألمانيا إلى
التراجع وإلى ترك الفرنسيين أحراراً في هذه البلاد يتصرفون فيها كيفما
شأوا . وانتهى الأمر بفرض الحماية الفرنسية على مراكش في ٣٠ مارس ١٩١٢
وبذا أصبحت مراكش منقسمة إلى منطقتين الشمالي منها منطقة نفوذ إسباني
والجنوبي منها منطقة نفوذ فرنسي .

وكما كان لاستيلاء الفرنسيين على تونس رد فعل على مراكش كان له رد
فعل شديد على طرابلس لجاورتها الفعلية لتونس . ولكن طرابلس كانت تابعة
تبعية فعلية للباب العالي الذي عمل على إمداد قواته فيها وصمم على الدفاع
عنها إذا حاول الفرنسيون الاعتداء عليها . ورات إنجلترا من جانبها أن تحذر

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقية والشروط الربية في Serie D. D. F.
جزء ٤ رقم ٥٩ تحت عنوان Accords Conclus le 8 Avril 1904 entre
la France. et l'Angleterre.

فرنسا من محاولة اى توسع فى هذه الناحية . فمن المفهوم كما بينت حكومة جلادستون ان انجلترا لن توافق مطلقا على التوسع الفرنسى فى طرابلس .

على ان فرنسا لم تكن تنوى بالفعل التوسع على حساب طرابلس ، وان كانت ترى ان من الواجب على الدولة العثمانية الا تجعل من هذه البلاد ماوى للشائرين الذين فروا من تونس . وكانت ترى الى جانب ذلك منذ صيف سنة ١٨٧٨ أن من الحكمة عدم معارضة الايطاليين اذا ذهبوا الى طرابلس متى اعترفوا لفرنسا بالتفوق فى تونس .

ولقد بدأ الايطاليون يفكرون جديا فى امر طرابلس حين فرض الفرنسيون حمايتهم على تونس فى صيف سنة ١٨٨١ ، ولم تكن فرنسا مستعدة لتعارضهم او لتضع العراقيل فى سبيلهم ، ولكن موقف الايطاليين العدائى الجديد بالنسبة لمرز فرنسا فى تونس لم يجعل فرنسا تعمل على تسهيل الامور لهم فى طرابلس . ولكن حين اخذت ايطاليا تعترف منذ سنة ١٨٩٦ بمركز فرنسا الممتاز فى تونس ومراكش عقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تترك للايطاليين الحرية فى التصرف فى امر مصير طرابلس . وفعلا اكدت الحكومة الفرنسية فى سنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠١ للحكومة الايطالية بان فرنسا لاتفكر فى الاستيلاء على طرابلس وترى انها تدخل ضمن منطقة النفوذ الايطالى (١) . وسيكون موقف فرنسا الودى هذا من العوامل التى شجعت الايطاليين على احتلال طرابلس فى اوائل القرن العشرين .

محمد مصطفى صفوت

(١) انظر الوثائق الفرنسية السياسية . 2 ème Serie ، J. I ، وثائق
٥٦٥٥٤٩٦٥٣.٥١.٥٥.٨٥٥.٥٦٥.٤٥٥.١٤٤٧٣